

الطيبات من الرزق



كثرة النعم:

ما أكثر النعم التي ينعم بها الناس؛ وما أوسع المتع، واللذائذ التي يتمتعون بها، ويتلذذون.

فمن نعمة النساء؛ إلى نعمة البنين؛ إلى نعمة الثروة؛ إلى نعمة الجاه، إلى نعمة السيطرة؛ إلى غير ذلك من متاع ظاهر؛ وشهوات مادية تملأ الحياة؛ وترى في كل جانب من جوانبها.

وقد ذكر الله بعض هذه النعم وعدّها؛ فمن ذلك قوله: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (آل عمران/ 14).

ومنه قوله: (اعْلَمُوا أَنزَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِيبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَزِيدٌ وَتَفَاخُرٌ يَبْتَغِيهِمْ وَتَكَادُورُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) (الحديد/ 20).

موقف الناس منها:

وللناس بإزاء هذا المتاع مواقف مختلفة:

1- فمنهم من يرى أنّها الغاية، فيحبها، ويؤثرها، ويتعلق بها، كما يتعلق الطفل ببني أمّه.

وهذا شأن الكافرين بآل، وبالأخرة، وبحكمة آل في الخلق، والحياة، وهؤلاء لاحظ لهم من فضل آل، ولا مثوبته في الآخرة.

وفيههم يقول آل سبحانه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُؤَفِّسُ لِلْغَيْبِهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (هود/ 15-16).

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) (محمد/ 12).

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) (الأحقاف/ 20).

وإنَّما كان إثارها محظوراً، لأنَّ حبها والتعلق بها يفسد الخلق، ويضعف الإرادة، ويخلق الفوضى، ويجعل السيطرة للهوى، وحين يسيطر الهوى تذهب كل القيم الصالحة، وتضيع جميع الحرمات التي اصطلح الناس على احترامها.

2- وعلى العكس من هذا الفريق يرفضها، ويزهد فيها لما فيها من آلام ومتاعب، ولما يكتنفها من مشاق وتعبات.

وهذا شأن المتصوفة، والزهاد، والرهبان، والفلاسفة، والعباد، وقد حذر الإسلام من هذا السلوك الانعزالي، فعتب على الرهبنة المبتدعة التي مارسها الرهبان، أو اخترعوها من تلقاء أنفسهم، دون أن يؤمروا بها، أو يدعوا إليها، فقال تعالى: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) (الحديد/ 27).

وقال الرسول (ص): "لا رهبانية في الإسلام".

وقال: "رهبانية أُمّتي الجهاد في سبيل آل".

وحظر أشد الحظر الامتناع عن الطيبات من الرزق، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (المائدة/ 87).

وقد منع الإسلام رفض الدنيا، لأنَّ ذلك عطل نشاط الحياة، ويوقف سيرها، ويصيبها بالشلل، ويجعل قيادتها في يد من لا يحسن القيام عليها، من ذوي الأخلاق الفاسدة، وإذا انتقلت قيادة الحياة إلى هؤلاء كانت الفتنة في الأرض، والفساد الكبير.

3- وثمة فريق وسط، لا ينغمس في المتاع المادي انغماساً يلهيه عن واجباته الروحية، ولا يزهّد فيه زهداً ينسيه ضرورات الجسم وحاجاته، بل يجمع بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وهذه هي وجهة الإسلام:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف/ 31-32).

وعلمنا الإسلام أن نهتف من أعماق نفوسنا، وأن ندعو آل بأحب ما يدعى به.

(رَبِّـنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة/ 201).

(رَبِّـنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزُقِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرْـبَةً أَغْنِيَنِي وَاجْعَلْ لَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِيمَانًا) (الفرقان/ 74).

وفي الحديث: "إنَّ الله يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده".

وفيه: "أحسنوا ثيابكم، وأحسنوا رجالكم، حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة".

وهذه الوجهة هي التي تتفق ونظام الفطرة، وتتلاءم مع طبيعة الإنسان، وتسائر منطق الإسلام كدين عام خالد..

أما اتفاقها مع فطرة الإنسان:

فالإنسان لم يخلق الإنسان، ويخلق فيه الميول، والعوطف، والغرائز، لكبتها بالزهد وإخمادها بالرياضة الشاقة، التي تضعف الجسم، والعقل معاً؛ فإنَّ العقل السليم في الجسم السليم.

وضعف الجسم يعرضه للأمراض، والأسقام، والعلل، ويحول بينه وبين النهوض بتبعاته، وأداء واجباته الشخصية، والدينية، والاجتماعية.

وضعف العقل يفقد الإنسان حسن التصرف، ويمنعه من إدراك الحقائق إدراكاً صحيحاً، فتصدر أحكامه فيها مشوبة بالخطأ ومجافية للصواب.

وسلامة الجسم لا تتوفر إلا بتوفير كلِّ ضروراته واحتياجاته.

وأما مناسبتها لطبيعة الإسلام، فالإنسان يريد للإسلام أن يعمَّ نوره الآفاق، وأن تنتشر أحكامه، ومبادئه، وتعاليمه، في أرجاء الدنيا، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت لأصحابه، القوة والمنعة، قوة العلم، وقوة المال، وقوة التنظيم، وقوة التشريع، وقوة التجديد، وقوة السلاح.

وهذه القوى لابدَّ وأن تكون في يد الجهاز الإسلامي كضرورة من ضرورات الاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين.

التوجيهات الرشيدة:

وإذا كان الإسلام ينظر إلى الدنيا هذه النظرة، ويضعها وضعها الصحيح، فإنَّه يوصي بوصايا يجعلها موضع الاعتبار وهي:

1- أنَّ الدنيا طريق إلى الآخرة، وهي طور من الأطوار، ولا سبيل إلى البقاء فيها، وعلى الإنسان أن يذكر رسالته التي خلق من أجلها، ويجعلها نصب عينيه، وهي عبادة الله، والفرار إليه.

(فَافْرُقُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَ مِمَّنْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (الذاريات/ 50).

2- وأنَّ الآخرة أبقي وأفضل، وهي لذلك أولى بالإثارة:

(بَلِّغْ تِلْكَ الْبُرُودَ الْوَحِيدَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرُ وَأَبْقَى) (الأعلى / 16-17).

(وَالْإِنِّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الدُّنْيَا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت / 64).

3- وعلى الإنسان أن يقوي إرادته، ويتقيد بقيود الحلال والحرام، ويخضع شهوته لحكم الشرع، وسلطان العقل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات / 40-41).

دور المسلمين:

وإذا كانت اليهودية أفرطت في الجانب المادي، والمسيحية أفرطت في الجانب المقابل.

فإنَّ الإسلام هو الوسط، المنتدبون من قِبَلِ اللَّهِ، لحمل هذه الرسالة الإسلامية التي نصل بالإنسان إلى منتهى كماله المادي والروحي معاً.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتَكُونَ الرُّسُلُ عَلَىٰكُمْ شَهِيدًا) (البقرة / 143).